المحاضرة الخامسة: أهمية علم المصطلح

أهمية المصطلح ودوره في بناء المعرفة:

يعدُّ علم المصطلح ذو أهمية كبيرة لأنّه يعتمد في تجديد المفردات حسب ما يلائم دوره المهم في تحصيل العلوم و ضبطها و إدراكها.

وعلى حدّ تعبير (الخوارزمي) فإن "المصطلحات مفاتيح العلوم " وفهم المصطلحات عنده يُعَدُّ نصف العلم، أي إنّك إذا فهمت مصطلحات النّص فقد فهمت النّص، لأنّ المصطلح عنده هو لفظٌ يعبّر عن مفهوم والمعرفة مجموعة من المفاهيم التي يرتبط بعضها ببعض على شكل منظومة، وقد ازدادت أهمية المصطلح وتعاظم دوره في المجتمع المعاصر الذي أصبح يوصف بأنه "مجتمع المعلومات أو مجتمع المعرفة"، وقد اتخذت الشبكة العلمية للمصطلحات في (فيينا) شعارا "لا معرفة بلا مصطلح" فبفضل التّرابط بين أنواع المعارف والتكنولوجية المختلفة أدى إلى توليد علوم جديدة وصناعات وخدمات جديدة".

وقد أعطى (بشير إبرير) أهمية للمصطلح تظهر من خلال مفاهيمه ، ويمكن حصرها كآتي:

1 – الوسيلة الأساسية لتنميّة التّفكير العلمي، عند المتعلّم وتوجيهه الوجهة بما يخدم ميوله وحاجاته ويُناسب إمكاناته.

2 – تشكيل مدخل منهجي فعّال، لإكساب المتعلّم الملكات الوظيفية التي تؤهّله لحلّ المشكلات التي يواجهها وتجعله يتكيّف مع المواقف التي يجد نفسه في خضمّها.

3 – كما أنّها تُكسِب المتعلّم منهجية نظرية وتطبيقية لدراسة الظّواهر المختلفة وتحليلها وفهم قوانينها والحقائق العلمية التي تسيّرها.

هناك أهمية أخرى أنّ علم المصطلحات يبحث في المفاهيم العلمية والألفاظ اللّغوية التي تعبّر عنها.

تُعَدُّ المعرفة عامِلا مهمّا بين الأفراد و المجتمعات تساهم في تحسين أدائهم و ارتفاع مردودهم الاقتصادي، واللّغة وعاءُ المعرفة والمصطلح هو الحامل للمضمون العلمي وفي ذلك تكمن أهميته الكبيرة و دوره الحاسم في عملية المعرفة.

تبرز أهمية المصطلح ودوره في بناء المعرفة عموما؛ وفي تفعيل البحث العلمي على وجه الخصوص، وذلك بالنّظر إلى العلاقة الوثيقة التي تجمع بين المصطلح والمعرفة، حيث يكتسي المصطلح دورا بارزا في تفعيل البحث العلمي وإنتاج المعرفة ومخرجاتها؛ لذلك فقد "جعل بعض الباحثين قيمة للمصطلح ودوره في بناء المعرفة بقيمة الجهاز العصبي عند الكائن الحي؛ إذْ عليه " يقوم وجوده، وبه يتيسّر بقاؤه، إذْ إنّ المصطلح تراكم مقولي يكتنز وحده نظريات العلم وأطروحاته".

فالمصطلح يقوم بدور كبير في تشكيل المعرفة وبناء كيانها؛ ذلك أنّ "أيّة ثقافة كانت؛ لن تنهض ويستقيم صرحها، إلا إذا أفلحت في إنتاج معرفة خصبة وجديدة، تُوجِّهها اصطلاحات واضحة الدّلالة،

وفي الحال نفسه فإنّ ثقافة أيّة أمّة من الأمم، تُقوَّض وتُفكَّك بالنّظر لعدّة أسباب أهمّها اضطراب دلالة المصطلح وتكاثر المصطلحات وتعارض مفاهيمها وعدم استقرارها".

ينبغي أنْ نؤكّد هنا إلى طبيعة العلاقة الوثيقة بين البحث العلمي وتطوره، وبين اللّغة ونموّها وتطوّرها، والعكس بالعكس فإذا حدث جمود في البحث العلمي؛ فإنّ اللّغة بمفرداتها ومصطلحاتها تُصاب بالرّكود؛ ذلك أنّه كلّما "ماجت البيئة المعينة بالنّشاط العلمي والثّقافي، نهضت اللّغة، استجابة لهذا النّشاط، وأخذت في استغلال طاقتها، وتنمية ثروتها، وتعميق جوانبها، ومن ثمّ تستطيع أنْ تمدّ هؤلاء وأولئك بطلباتهم من الوسائل اللّغوية اللازمة للتّعبير عن علومهم وفنونهم، وكلّما جمد التّفكير العلمي وتخلّف النّشاط الثّقافي طلّت اللّغة في موقعٍ جامدة، ولا تُبدي حراكا ولا تقدّم زادا، لأنّها بذلك قد فقدت عوامل النّمو، وحرمت من عناصر النّضج الفنّي".

لعلّ من أبرز مظاهر أهمية المصطلحات ودورها في إنتاج المعرفة هو أنّ المصطلحات "وسيلة أساسية لتنمية التّفكير العلمي الجامعي وكذا الباحث، ويُلبّي حاجتهما ويناسب إمكاناتهما، وتشكّل مدخلا منهجيا فعّالا لاكتساب الملكات الوظيفية المؤهلة لحلّ المشكلات المختلفة (...) وتُمَكِّنُ من التّفكير العلمي الموضوعي القائم على الدّليل والبرهان والمنطق السّليم وإدراك العلاقات الرّابطة بين الظّواهر في أقل وقت ممكن". لذلك فقد شبّه بعض الدّارسين قيمة المصطلحات بالذّاكرة الحاسوبية في صغر الحجم، وسعة الاكتناز".

إنّ قيمة المصطلح لم تعد تخفى على طلاّب العلم في توظيفهم للمصطلحات العلمية بشكل دقيق وانتقاء صحيح؛ لأنّ توظيف المصطلح بات ضرورة لازمة للمنهج العلمي، إذْ لا يستقيم منهج؛ إلاّ إذا بُنيّ على مصطلحات دقيقة ... حتى أنّ الشّبكة العالمية للمصطلحات في (فيينا) بالنّمسا اتّخذت شعارا: (لا معرفة بلا مصطلح)". ولعل من أبرز الدّلائل على أهمية المصطلح أنّه "يستطيع الإمساك بالعناصر الموحدة للمفهوم والتّمكّن من انتظامها في قالب لفظي يمتلك قوّة تجميعية لما قد يبدو مشتّتا في التّصور"، وإذا لم يتوفّر للعلم مصطلحُه العلمي الذي يُعدّ مفتاحه، فَقَدَ هذا العلم مسوّغهُ، وتعطّلت وظيفتُهُ".

لأنّ المصطلح العلمي "ضرورة من ضرورات العلم، إذْ إنّها تَستحضِر المعنى بأيسر وسيلة. وإذا كانت اللّغة أداة من الأدوات البشرية المتقنة المحكمة التي تربط بين البشر بعضهم ببعض ربطا وثيقا، فإنّ هذا يبدو في اللّغة العلمية.

يبدو أنّ أبرز الصّعوبات التّي تواجه البحث العلمي العربي هو إيجاد لغة علميّة أو مصطلحات دقيقة تعبّر عن المفاهيم العلمية المستحدثة؛ لذلك ينبغي أن يكون السّعي حثيثا لإيجاد سبل تكون قادرة على وضع مصطلحات علمية تسهم في بناء المعرفة لأنّه كلّما "أحسنت الأمّة الدّقة والرّؤية والعمق في تعريفاتها وتحديداتها ورسومها، بدت أكثر تألُّقا ونظارة على غيرها من الأمم المعاصرة لها".

يُعَدُّ المصطلح مظهرا من مظاهر تطور العلم والمعرفة، وهي دليل صادق على ما في تاريخ العلم من صواب أو خطأ، وهي جزء لا يتجزّأ من أساليب التّفكير العلمية. وتاريخ المصطلحات هو تاريخ العلوم، وكلّ علمٍ جديدٍ يحتاج إلى مصطلحات جديدة. ومن صفات العلوم الطبيعيّة أنّها دائمة النّمو، وأنّها دقيقة منظّمة قابلة للامتداد البعيد المدى، لذلك كان من الضروري أن تكون للعلوم هذه المصطلحات نفسها، فيجب أن تكون دقيقة، وأن تكون منظمّة وأن تكون قابلة للنّمو".

وخلاصة القول: إذا تطوّر المصطلح ازدهرت المعرفة وإذا اضطرب المصطلح وأصبحت المصطلحات تشوبها الفوضى المصطلحية، تضطرب المعرفة، كما أنّه من الضروري أن تتوحّد المصطلحات ولا تتنوع حتى لا تتشتّت المفاهيم وتضطرب، عموما ينبغي التّأكيد على لأنّ للمصطلح دورا مهما وبارزا في البحث العلمي.